الفصل الثالث

فصل الدين عن الأدب

obeikandl.com

obeikandl.com

[١] فصل الدين عن الأدب بين الرفض والتأييد:

عندما يضعف التزام أمة من الأمم بمبدئها تنشأ في أذهان أجيالها شبهات كثيرة، تقوم على مفهومات خاطئة وتأويلات مضطربة، وتجري في ساحتها الفكرية والثقافية مناقشات لقضايا ثابتة لا تحتاج إلى مناقشة، لو كانت صلة الأمة بعقيدتها قوية راسخة، وتظل تلك المناقشات تجري حتى يظنَّ عامة الناس من مثقفين وغير مثقفين أنَّ ما يجري هو الحقُّ الذي لا مرِّية فيه.

فإذا ما هبَّ عالم غيورٌ على دينه وأمَّته يبيّن للناس وجه الحق، ويدعوهم إلى التورُّع عن مناقشة الأصول الثابتة، والقضايا الواضحة التي لا يحيط بها شكٌّ عند أصحاب الوعي والبصيرة.. وقفوا في وجهه بعنف، واتهموه بقتل حرية الفكر والثقافة، وبالنظرة الأحادية الجامدة.. وهنا يحصل اللبس والاضطراب وتكثر مظاهر الجرأة على الحق تحت مظلة «أهمية الحوار» و«حرية الثقافة».. وكأن هذه الحالة تصديق لذلك الحديث المروي عن الرسول عليه الصلاة والسلام الذي جاء فيه: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»[١].

(١) جامع الأصول (٢/ ٧٤٩)، الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ.

obeikandl.com

وما ظهور شبهة فصل الدين عن الأدب إلا نتيجة من نتائج هذه الحالة التي أشرنا إليها، خاصةً في عصور الإسلام المتأخرة التي شهدت اضطراباً كبيراً في المفهومات عند أجيال الإسلام.

إن شمولية الإسلام، وسعة دائرة تعاليمه وتشريعاته حقيقة ثابتة لا مراء فيها، وقد فهمها سلفنا الصالح فهماً عميقاً فسلمت ألسنتهم وأقلامهم من مظاهر التقوُّل على الإسلام بغير علم.

وإذا كانت قد وردت بعض العبارات الدالّة على مفهوم فصل الدين عن الأدب عند بعض النقاد القدامى، فإن ذلك إنما كان دفاعاً عن فكرة أدبية محدَّدة، ولم يكن منهجاً مرسوماً يُدعى إليه كما هو الشأن في «التوجُّه العلماني المعاصر»، وهو ما سوف أبيِّنه في الصفحات المقبلة ـ بإذن الله ـ، ولكن قبل الدخول في مناقشة هذه القضية أودُّ أن أطرح عدداً من الآراء لبعض الأدباء والنقَّاد في الماضي والحاضر، منها ما يؤكد الصلة الوثيقة بين الأدب والدين والأخلاق، ومنها ما يدعو إلى قطع هذه الصلة حرصاً على الإبداع الفني، وعلى

حرية الأديب، وسأكتفي بذكر بعض الآراء للتمثيل، وذلك لأن حصر هذه الآراء لا يتأتى في مثل هذا المكان، وسوف أناقش بعض هذه الآراء مناقشة موضوعية هادئة ـ بإذن الله ـ؛ حتى يتضح الحق لمن لديه شبهة من القراء الكرام، كما أنني سأترك مناقشة بعضها لعدم الحاجة إلى ذلك في ـ رأيي ـ.

(أ) آراء القائلين بوجوب مراعاة الدين والأخلاق في الأدب:

ـ ورد في كتاب (أخبار أبي تمام) للصولي أن أحمد بن أبي طاهر دخل على أبي تمام، وهو يعمل شعرًا وبين يديه شعر لأبي نواس ومسلم بن الوليد، فقال: ما هذا؟ قال: اللات والعُزَّى أعبدهما من دون الله منذ ثلاثون سنة، قال الصولي: وهذا إذا كان حقاً فهو قبيح الظاهر، رديء اللفظ والمعنى، لأنه كلام ماجن مشغوف بالشعر، والمعنى أنهما قد شغلاني عن عبادة الله عزَّ وجل، وإلا فمن المحال أن يكون عبد اثنين لعله عند نفسه أكبر منهما أو مثلهما أو قريب منهما، على أنه ما ينبغي لجادٍّ ولا مازح أن يلفظ بلسانه ولا يعتقد بقلبه ما يغضب الله عز وجل، ويتاب من مثله»[1].

(١) أخبار أبي تمام، ص ١٧٣.

obeikandi.com

ـ ويقول أبو منصور الثعالبي في «يتيمة الدهر»: «.. على أن الديانة ليست عاراً على الشعراء، ولا سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر، ولكن للإسلام حقَّه من الإجلال الذي لا يسوغ الإخلال به قولاً وفعلاً، ونظماً ونثراً»[1].

ـ بعث ابن الأنباري برسالة إلى ابن المعتز جاء فيها: «.. جرى في مجلس الأمير ذِكْر الحسن بن هانئ «أبي نواس» والشعر الذي قاله في المجون، وأنشده وهو يؤم قوماً في صلاة، وهو أن لكل ساقطة لاقطة، وإن لكلام القوم رواة، وكل مقول محمول، فكان حق شعر هذا الخليع ألاَّ يتلقاه الناس بألسنتهم ولا يدونونه في كتبهم... والحسن بن هانئ ومن سلك سبيله من الشعر الذي ذكرناه شطّار كشفوا للناس عوارهم، وهتكوا عندهم أسرارهم، وأبدوا لهم مساويهم ومخازيهم، وحسَّنوا ركوب القبائح»[2].

ـ قال التوَّزي: رأى الأصمعي جزءًا فيه من شعر السيد الحميري فقال: لمن هذا؟ فسترته عنه لعلمي بما عنده فيه فأقسم عليَّ أن أخبره فأخبرته، فقال: أنشد لي قصيدة منه،

(١) يتيمة الدهر (١/١٨٥).

(٢) جمع الجواهر في الملح والنوادر، لأبي إسحاق الحصري القيرواني، ص ٣٣.

فأنشدته قصيدة ثم أخرى، وهو يستزيدني، ثم قال: قبحه الله، ما أسلكه لطريق الفحول، ولولا ما في شعره ما قدّمت عليه أحدًا من طبقته»[1].

ـ يقول أحمد أمين في كتاب النقد الأدبي: «الأدب يشرح الحياة الإنسانية، لا لذاتها بل لغاية، وهذه الغاية هي ترقية المشاعر لا إضعافها، فإذا هو حاول إفساد العواطف وإضعافها منعناه من ذلك .. فإذا قيل إن الشاعر أو الروائي يجب أن يمنح الحرية التامة لشرح نواحي الحياة المختلفة قلنا: نعم يجب أن يمنح هذه الحرية في حدود أنه يثير مشاعر مشروعة... فالفن يتطلب الحقيقة، والأخلاق تتطلّبها أيضاً فيجب أنْ يتفقا»[2].

ـ يقول محمود تيمور في كتابه (الأدب الهادف): «الأديب الفنان هادفٌ أبداً، وهو بما يصوِّر من استجابته للحياة، وبما يمارس من تعمُّقه في أسرارها وخوافيها، إنما يهدف إلى إعلاء ما فيها من حق، وتزكية ما فيها من خير، وتجلية ما

(١) الأغاني (٢٣٢/٧)، والسيد الحميري كان متشيّعاً يستحل سبّ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

(٢) النقد الأدبي (٥٣/٥٢).

obeikandi.com

فيها من جمال»[1].

ـ يقول د/ بدوي طبانه: «وإنما يلزم العيبُ الأديبَ إذا حاد عن الجادة وسلك به سبيل الغيِّ والضلال»[2].

(ب) آراء القائلين بفصل الدين عن الأدب:

ـ يقول القاضي الجرجاني[3]: «والعجب ينتقص أبا الطيب ويغضُّ من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة، كقوله:

يترشَّفْن من فمي رشفاتٍ هنَّ فيه أحلى من التوحيد

وهو يحتمل لأبي نواس قوله:

فدع الملام فقد أطعتُ غوايتي ونبذتُ موعظتي وراء جداري
ورأيت إيثار اللَّذاذة والهوى وتمتُّعاً من طيب هذي الدار
إني بعاجل ما ترين موكَّل وسواه إرجافٌ من الآثار
ما جاءنا أحد يخبِّر أنه في جنّة مُذْ مات أو في النار

---

(١) الأدب الهادف ، ص ٤١.

(٢) نظرات في أصول الأدب والنقد.

(٣) أبو الحسن القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، كان معتزليّاً، جمع بين الكلام وفقه الشافعي وانظر: طبقات المعتزلة لأحمد بن يحى بن المرتضى، ص ١١٥، حيث ذكره في الطبقة الحادية عشرة، دار المنتظر، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ.

obeikandi.com

فلو كانت الديانة عاراً على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر لوجب أن يُمحى اسم أبي نواس من الدواوين، ويُحذَف ذكره إذا عُدَّت الطبقات، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد الأمَّة عليه بالكفر، ولو جب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبعري وأضرابهما ممن تناول رسول الله ﷺ وعاب في أصحابه بكَاءً خُرْساً، ولكن الأمرين متباينان، والدين بمعزل عن الشعر»[1].

ـ يقول قدامة بن جعفر: «فإني رأيت من يعيب امرأ القيس في قوله:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمائم محول

ويذكر أن هذا معنى فاحش، وليست فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر، كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلاً رداءة الخشب في ذاته»[2].

ويقول قدامة كذلك: «إن الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقاً، بل إنما يراد منه إذا أخذ في معنىً من المعاني كائناً ما كان أن يجيده»[3].

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص ٦٣، ٦٤.
(٢) نقد الشعر، ص ٤. (٣) المرجع نفسه، ص ٦.

obeikandl.com

ـ يقول عبدالله بن المعتز في الرد على رسالة ابن الأنباري التي وردت في موضع سابق: «.. وهل يتناشد الناس أشعار امرئ القيس والأعشى والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة وبشار وأبي نواس على تعهرهم، ومهاجاة جرير والفرزدق على قذعهم، إلا على ملأ من الناس وفي حلق المساجد، وهل يروي ذلك إلا العلماء الموثوق بهم وبصدقهم، وما نهى النبي ﷺ ولا السلف الصالح من الخلفاء المهديّين بعده عن إنشاد شعر عاهر ولا فاجر»[1].

ـ يقول أبو بكر الصولي مدافعاً عن أبي تمام: «وقد ادعى قوم عليه الكفر، بل حققوه، وجعلوا ذلك سبباً للطعن عليه وما ظننت أن كفرًا ينقص من شعر، ولا أن إيماناً يزيد فيه»[2].

ـ يقول الأصمعي : «طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي النبي ﷺ وحمزة وجعفر ـ رضوان الله عليهم ـ وغيرهم، لأن شعره، وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل: امرئ القيس

(١) جمع الجواهر، ص ٣٣.
(٢) أخبار أبي تمام، ص ١٧٢.

obeikandl.com

وزهير والنابغة من صفات الديار والرحل، والهجاء والمدح، والتشبيب بالنساء، وصفة الخمر والخيل، والحروب والافتخار، فإذا أدخلته في باب الخير لان»[1].

(جـ) مناقشة بعض الآراء:

أودّ الإشارة أولاً إلى أنني لن أشغل القارئ الكريم هنا بآراء طائفة من النقاد العرب المعاصرين جعلت همَّها الانسياق وراء بعض الصيحات النقدية العبثية التي ترتفع هنا وهناك، أعني صيحات التشظّي، والتشرذم، وجماليات اللا إنسجام القائمة على تعرية النصوص الأدبية عموماً من القيم الفكرية والشعورية والعقدية، الأمر الذي جعل بعض هؤلاء النقاد «المتشرذمين» يقول: «الناقد الذي يملك درجة عالية من الذكاء والمهارة والإخلاص يستطيع أن يقدم لك رؤيته الخاصة للأشياء دون أن يدخل في مشكلة منح قيمة عقائدية الطابع أو أخلاقية أو سياسية، قيمة ليست مرتبطة جوهرياً بمكونات جمالية في النص» أو يقول: «تعرية المقدس من قدسيته والأسطوري من أساطيريته اتجاه جوهري في شعر الحداثة الراهنة»[2].

(١) الموشّح للمرزباني، ص ٨٥.

(٢) جريدة الرياض، ع ٩٢٦٤، في ٢٠ جمادى الأولى ١٤١٤هـ.

ويمكن الرجوع إلى كتابَي «الرؤى المقنعة» و«جدلية الخفاء والتجلّي والبنية الإيقاعية» للكاتب المتشظّي كمال أبو ديب.

أقول: لن أشغل القارئ الكريم بالاستغراق والاستطراد في هذا «العفن النقدي» القائم على التمرُّد والرفض للقيم والمبادئ، فإن ذلك مرفوض عند العقلاء كليةً، وهو هامشي في مسيرة أدبنا الإسلامي، ساقط من حسابات نقدنا الواعي، كما أنه يحمل عوامل سقوطه في ذاته، ولولا أنني خشيت أن يقال: لماذا لم تتعرض لهذه الاتجاهات لما أشرت إليها هنا أصلاً؟!

وأعود الآن إلى ما سبق أن أوردته من الآراء النقدية حول قضية فصل الدين عن الأدب، فأقول، إن المتأمل لآراء النقاد القدماء التي نقلت إلينا على أنها تنادي بفصْل الدين عن الأدب يدرك ـ كما سنرى ـ أنهم لم يكونوا يرون الفصل بينهما منهجاً ولا ينادون به، بل لا يرضون به أصلاً، وإنما كانوا يتحدثون بوضوح عن قضية فنية بحتة يردون بها على أولئك الذين ينفون الشاعرية عن الشاعر بسبب انحراف شعره، ويؤكدون أن انحراف الشاعر الخلقي والديني لا ينفي عنه صفة الشاعرية، فهو شاعر له وزنه الفني وقدرته الشعرية التي لا يلغيها انحرافه.

والقضية بهذه الصورة أهون من أن يقف عندها الناقد، فهذه حقيقة نقرُّها ولا نقول بخلافها في هذه الجزئية، فأبو

نواس شاعر مجيد، وله طابعه الشعري المتميِّز، ولكنه منحرف في شعره كما وصفه ابن الأنباري هو وأضرابه من الشعراء في القول الذي أوردناه سابقاً؛ حيث وصفهم بأنهم شطار كشفوا للناس عوارهم، وهتكوا عندهم أسرارهم، وأبدوا لهم مساويهم ومخازيهم، وحسنوا ركوب القبائح، فابن الأنباري هنا لم ينف الشاعرية عن أبي نواس وأضرابه بل أثبتها لهم حين أكَّد أنهم «حسنوا ركوب القبائح».

ومعنى ذلك: أن لشعرهم قيمة فنيّة إبداعية جعلته مؤثراً في الناس تأثيراً سلبياً، فلا يسوغ لناقد أو غير ناقد أن يقول عن هؤلاء: إنهم ليسوا شعراء؛ لأنهم انحرفوا عن جادة الطريق.

ويؤكد هذا ما سبق أن ورد معنا من أقوال الصولي، حيث أوردت له قولين، أحدهما يعنِّف فيه على أبي تمام في قوله عن شعر أبي نواس ومسلم بن الوليد بأنهما عنده كاللات والعزَّى يعبدهما من دون الله؛ حيث يقول الصولي: «وهذا إذا كان حقاً فهو قبيح الظاهر، رديء اللفظ، ثم قال: على أنه لا ينبغي لجاد ولا مازح أن يلفظ بلسانه، ولا يعتقد بقلبه ما يغضب الله عز وجل، ويتاب من مثله»، فهذا قول صريح واضح

obeikandl.com

في رفض الاستهانة بالدين في الأدب أو غيره، وفي الجد والهزل، ومع ذلك فقد ورد عن الصولي قوله الآخر الذي يدافع فيه عن أبي تمام فيقول: وقد ادعى قوم عليه الكفر، بل حققوه وجعلوا ذلك سبباً للطعن عليه، وما ظننت كفرًا ينقص من شعر، ولا أن إيماناً يزيد فيه.

وظن المستعجلون أن هذا دليل من تراثنا الأدبي القديم على الدعوة إلى الفصل بين الدين والأدب، وهذا الظن «غلط كبير»؛ ذلك لأن الصولي هنا لا يدعو إلى فصل الأدب عن الدين، ولكنه يرد على أولئك الذين جعلوا انحراف بعض شعر أبي تمام الديني سبباً للطعن على شاعريته وإبداعه فأكد أن هذا الحكم غير صحيح، فأبو تمام شاعر فحل مجيد، وإن كان في شعره انحراف، بل إن الصولي هنا ذكر أن قوماً: ادعوا على أبي تمام الكفر بل حققوه، ولم يدافع عن أبي تمام في هذه الجزئية فلم يقل: إنهم كذبوا عليه في هذا؛ ذلك لأن همَّه في هذا ليس إثبات ما قيل عن كفريات أبي تمام أو نفيها، وإنما همُّه هنا الرد على الذين طعنوا في شاعرية أبي تمام بسبب ما ادعوه عليه من الكفر، فقال: وما ظننت أن كفرًا ينقص من شعر، ولا أن إيماناً يزيد فيه، وهذا صحيح، وفي

هذا ما يؤكد أن الصولي كان من دعاة استقامة الشعر خلُقياً ودينياً لاسيما وأنه قد عنَّف على أبي تمام في بعض ما روي عنه من كلمات تفوح منها رائحة الاستهانة بالدين.

ويشبه هذا الموقف، الموقف الذي وقفه القاضي الجرجاني من شعر المتنبي، حيث دافع عن شاعرية أبي الطيب وعن إبداعه الفني، مؤكدًا أن ورود أبيات عنده تدل على ضعف العقيدة لا ينفي عنه الإجادة والإبداع.

يقول القاضي الجرجاني: والعجب ممن ينتقص أبا الطيب ويغضُّ من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة، ثم يقول القاضي بعد ذلك: فلو كانت الديانة عارًا على الشعر وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر، لوجب أن يُمحى اسم أبي نواس من الدواوين، ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبعري وأضرابهما ممن تناول رسول الله ﷺ وعاب في أصحابه بكاءً خُرّساً، ولكن الأمرين متباينان والدين بمعزل عن الشعر».

فالقاضي الجرجاني هنا لا يدعو إلى فصل الدين عن الأدب فصلاً تنتفي به علاقة الأدب بالدين، وإنما يؤكد ما

obeikandl.com

ذكرناه آنفاً أن سوء الاعتقاد لا ينفي فنيَّة الأدب، ولا يؤخر منزلة الشاعر الفنيَّة، ولعل قول الجرجاني هذا أكثر إيهاماً من قول الآمدي السابق بسبب ورود جملة صريحة عنده يمكن أن يُفهم منها إذا أُخذت منقطعة عن سياقها في الكلام أنها تدلُّ على دعوة صاحبها إلى فصل الدين عن الشعر، ألا وهي جملة «والدين بمعزل عن الشعر».

ولكنَّ هذه الجملة تظل محصورةً في إطار المعنى الذي أشرنا إليه؛ لأنها متصلةٌ بما قبلها من الكلام فلا يصحّ أن تُحمل على عموم «فصل الدين عن الأدب» بل إن حملها على هذا العموم ادعاء وتقوُّل على الجرجاني صاحب الوساطة.

وهناك دليل آخر على ما ذكرته في هذه المقولة، ألا وهو ما سبق نقله عن الثعالبي الذي أورد نص عبارة القاضي الجرجاني التي تقول: «على أن الديانة ليست عاراً على الشعراء ولا سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر»، ثم علَّق عليه الثعالبي بقوله: «ولكن للإسلام حقَّه من الإجلال الذي لا يسوغ الإخلال به قولاً وفعلاً، نظماً ونثرًا»، فالثعالبي هنا يؤكد ما ذهبنا إليه في فهم قول صاحب الوساطة من أن الديانة ليست عاراً على الشاعر من «الناحية الفنية»، ثم علَّق عليه الثعالبي

obeikandl.com

بالكلام السابق مؤكداً أن للإسلام حقَّه من الإجلال الذي لا يصحّ التهاون به، فالفصل بين الدين والشعر غير وارد أصلاً في ذهن الثعالبي، ولا في ذهن القاضي الجرجاني قبله، كما أنه لم يكن واردًا في ذهن الآمدي قبل ذلك، ومن هنا لا يصح الاستشهاد بهذه الأقوال على «فصل الدين عن الأدب»[1].

ومما يزيد هذا الأمر تأكيدًا قول قدامة بن جعفر الذي ذكرناه سابقاً حيث أشار إلى أن فحاشة المعنى في نفسه ليست مما يزيل جودة الشعر، ومثَّل لذلك بالخشب الرديء إذا أحسن النجّار نجارته وأبدع فيها فإن رداءته لا تنفي جودة صناعته، كما أن رداءة معنى الشعر لا تنفي جودته الفنيّة.

ولكنني أقول: إن للرداءة في معنى القصيدة تأثيرَها في الحكم العام على النص الأدبي، قبولاً ورفضاً، صحةً وخطأ، كما أن للرداءة في نوع الخشب تأثيرها في قيمته، فليست

(١) لقد تعجّل بعض النقاد فآخذ الجرجاني على مقولته هذه وعدَّها دعوة صريحة إلى فصل الدين عن الأدب، مثل: علي العماري في كتابه «الصراع الأدبي بين القديم والجديد» ص ٢٥٧، وغيره، ولعل الصحيح هو ما ذكرته.
وانظر: «مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي» للدكتور عبد الباسط بدر ص ١٣٣ وما بعدها وانظر كتاب «الأدب الإسلامي ضرورة» للدكتور أحمد محمد علي ص٩٠.

obeikandl.com

قيمة الخشب الرديء ـ وإن أحسن النجار صناعته ـ كقيمة الخشب الجيد الثمين.

إنها كموضوع «خضراء الدمن: المرأة الحسناء في المنبت السوء»[1]، فهي امرأة حسناء شكلاً، لكنَّ منبتها سيّئ، ولهذا كان التحذير منها صريحاً، وليس معنى التحذير منها إنكار ما أوتيت من الحسن الخارجي، كما أنه ليس معنى التحذير من النص الأدبي المنحرف أو الهابط إنكار ما فيه من جودة فنيّة.

على أن قدامة بن جعفر نفسه قد قال كلاماً آخر يحسن بنا أن نقف عنده لما فيه من إشارة إلى عدم إخضاع الأدب للمقاييس الدينية والخلقية، أعني قوله الذي أوردناه سابقاً «إن الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقاً، بل إنما يُراد منه إذا أخذ في معنىً من المعاني كائناً ما كان أنْ يجيده».

(١) الميداني، مجمع الأمثال ٣٢/١، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٤هـ وقد نسبه الميداني إلى رسول الله ﷺ، بينما قال عنه الشيخ الألباني إنه ضعيف جداً رواه الواقدي «وقد قال عنه الدارقطني: تفرد به الواقدي وهو ضعيف» والواقدي «متروك» كما قال الألباني، فقد كذّبه الإمام أحمد والنسائي وابن المديني وغيرهم.
انظر كتاب سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، المجلد الأول، حديث رقم ١٤ ص: ٢٤، الناشر المكتب الإسلامي الطبعة الرابعة، ونقل السخاوي عن الدار قطني قوله عن هذا الأثر «إنه لا يصح من وجه. انظر المقاصد الحسنة للسخاوي ص : ١٣٥، رقم الحديث: ٢٧١، الناشر دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.

obeikandi.com

فقدامة هنا يدعو بوضوح إلى أن يكون همُّ الأديب الأوَّل أن يجوِّد أدبه فنياً بصرف النظر عن الصدق والكذب، بل إنه يؤكدُ أن الشاعر لا يوصف بالصدق، وأن وصفه بالصدق غير وارد في الدراسة النقدية لشعره، ويمكن أن يُناقش هذا القول من جانبين:

(أ) هل يحول صدق الشاعر دون إجادته فنياً؟ وهل الإبداع الأدبي وَقْفٌ على الكذب والمبالغات؟ ويمكن أن نضع له عنواناً «الإبداع الفني بين الصدق والكذب».

(ب) هل يصحّ ـ في مقياس الفطرة السليمة ـ أن يتناول الشاعر أيَّ معنىً من المعاني «كائناً ما كان» هذا المعنى وأن يتوخَّى التجويد فيه، حتى لو كان معنىً منحرفاً، مخالفاً للفطرة السليمة مصادماً لحريات الآخرين ومشاعرهم؟ وهو ما يمكن أن نسميه «حرية الأديب».

(أ) الإبداع الفني بين الصدق والكذب:

إن الدراسة الموضوعية الجادة لإنتاج الأدباء والشعراء على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم تثبت أن الإبداع الفني ليس وقفاً على المبالغة والكذب، بل إن الصدق أهم حقل من حقول الإبداع عند الأدباء والشعراء المجيدين، والصدق الأدبي ـ في المنظور الإسلامي ـ لا يتعارض مع الصور الفنَّية القائمة على

obeikandl.com

الخيال القريب أو البعيد، فمساحة الإبداع فسيحة ليست محدودة بحدود ضيقة كما يظنّ من يربط بين الإبداع والكذب.

ولا أعلم من أين جاء قدامة بن جعفر بمقولة: «إن الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقاً»؟! وكيف أجاز لنفسه أن يقع ضحية هذا التعميم الخاطيء دون أن يخطر بباله ما ورد من آراء نقدية منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى عصر قدامة تؤكد أهمية الصدق في العمل الأدبي؟[1].

إن هاجس «الجودة الفنيَّة» قد يُخرج بعض النقاد من الموضوعية إلى التعميم الذي يجني على الدراسة النقدية، ويدعو إلى إصدار أحكام عامة لا تخضع للتدقيق والتمحيص، إن ما أحدثه الإسلام من تحوُّل في حياة الناس قد أثَّر تأثيرًا كبيرًا في المقاييس الأدبية التي تُقاس بها نصوص الأدب، وتُحدد بها خارطة النقد الأدبي، وهي مقاييس قائمة على الشمولية في النظرة إلى الأدب ونصوصه بحيث لم تُغفل الجانب الفني، ولم تهمل الجوانب الأخرى المتعلقة بالمعاني والأفكار وما يتبعها من الصدق والخُلُق الفاضل، وتجنُّب مزالق

(١) راجع كتاب: الشعر والدعوة في عصر النبوة، للدكتور يوسف أبو هلالة، ص ٦٦ وما بعدها، وكتاب الالتزام الإسلامي في الشعر، للدكتور ناصر الخنين، ص ١٠٣ وما بعدها.

obeikandl.com

الهوى. وإنما أُتي بعض النقاد المسلمين قديماً وحديثاً من عدم تمثُّلهم لجوانب هذا التحوُّل الشامل الأمر الذي جعلهم ينشغلون عن ترسيخ القيم النقدية الإسلامية، بالحديث عن الجودة الفنيَّة، والعناية بها على حساب الجوانب الأخرى[1].

فكلام قدامة بن جعفر الذي نناقشه هنا لا يخرج في مجمله عن هذه الرؤية الفنية التي تستهوي الناقد فيحرص عليها ويعمل على ترسيخها، ويطلق عبارات نقدية عامة توهم القارئ بأمور قد يكون الناقد بعيداً عن القصد إليها، حينما قال ما قال، لاسيّما أنها ذات دلالات ظاهرية موهمة، وأن أصحابها غير موجودين حتى نتمكن من معرفة مقاصدهم، وإن كنت أؤكد ما سبقت الإشارة إليه من أن أكثرهم لا يقصد الفصل بين الدين والأدب حينما يطلق مثل هذه الأقوال، وإنما يردُّ على من ينفي القدرة الإبداعية والفنية عن الشاعر بسبب مخالفته العقدية، أو انحراف أدبه خُلُقياً.

(ب) حرية الأديب:

إن الرؤية الإسلامية تؤكد أن للأديب مساحة من الحرية

(٢) انظر كتاب: شعر عصر صدر الإسلام من منظور التصور الإسلامي، للدكتور محمد عادل الهاشمي، ص ٢١ ما بعدها.

obeikandl.com

يمكن أن ينطلق فيها بجواد إبداعه وفنه، بعيداً عن القيود المجحفة، أو السدود التي تمنع من الانطلاق، ولكنّ هذه المساحة الكبيرة محدودة بحدود لن يجد الأديب من بعدها إلا المفازات المهلكة والحفر القاتلة، ومعنى ذلك أن هنالك معاني وأفكاراً لا يصحُّ للأديب المسلم أن يتفنَّن فيها إذا كانت مخالفة للمنهج الإسلامي الصحيح، ومصادمة للفطرة البشرية السليمة، ولذلك فإن عبارة «كائناً ما كان» التي رُويت عن «قدامة بن جعفر» تحمل من التعميم وعدم الدقة، ما يجعل رفضنا لها أمراً ضرورياً، لا من باب التعسُّف القائم على ردة الفعل، ولكن من الرؤية الموضوعية القائمة على الفهم الصحيح لمعنى «حرية الأديب»، هذه الحرية التي «لو أطلق لها العنان فإنها قد توجد جواً يكون فيه الأفراد في حالة تصادم لا حدود له مما قد يؤدي إلى فوضى اجتماعية لا يستطيع معها الفرد أن يلبي الحد الأدنى من حاجاته»[1].

وكلمة «كائناً ما كان» التي قالها قدامة تُوحي بهذا التجاوز في إعطاء الحرية للأديب، مما قد يحدث معه انحراف صارخ

(١) انظر كتاب: حدود الحرية لكاتبه إيزايا برلين، ترجمة جمانه طالب، ص ١٣ وما بعدها، دار الساقي ١٩٩٢م.

obeikandl.com

في أدبه تسوّغه له هذه الحرية المنفلتة، وهو ما لا يصح أن نقبله منه فضلاً عن أن ندعوه إلى تجويده[1].

إن ضبط حرية الأديب لا يعني ـ بحال من الأحوال ـ القضاء عليها، ففرق كبير بين هذا وذاك، وإن أوضح صورة لتقريب هذا المعنى هي تلك الصورة التي أشار إليها «سبينوزا» في قوله معلقاً على أهمية ضبط حريات الناس حفاظاً على حرياتهم، وهو ما يُعبِّر عنه بعض الفلاسفة بـ«خنق الحرية من أجل الحفاظ على الحرية»، حيث يقول سبينوزا: «إن الأطفال ليسوا عبيدًا على الرغم من كونهم مجبرين على القيام بما يُطلب منهم؛ ذلك لأنهم يطيعون الأوامر التي في صالحهم»[2].

وحتى أقرّب المعنى المراد أضرب مثلاً بمقولة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الشهيرة: «مُذْ كم تعبدتم الناسَ يا عمرو وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»[3]، فهي مقولةٌ يُعنى بكتابتها وترديدها دعاة الحرية وعشاقها في كل مكان وزمان،

(١) لقدامة بن جعفر عبارات صريحة تدل على عنايته بتجويد الشعر بصرف النظر عن المعنى، وهي عبارات مبثوثة في كتابه نقد الشعر.

(٢) حدود الحرية، ص ٤٦.

(٣) فتوح مصر والمغرب ـ ابن عبد الحكم ـ ص: ٢٢٥، بتحقيق عبد المنعم عامر صدر عام ١٩٦١م.

obeikandl.com

لما فيها من إشارة واضحة إلى أهمية الحرية التي منحها الله للإنسان، ورعاها بما شرَّع من شرائع، طبّقها أنبياؤه ورسله عليهم السلام وأتباعهم، وعمر بن الخطاب لا يطلق هذه المقولة لذرٍّ الرماد في العيون، أو لجعلها شعاراً مرفوعاً يغطي به ما لا يتفق معها من الأفعال، وإنما يطلقها صرخة مسلم يرعى تعاليم دينه ويراقب الله في كل صغيرة وكبيرة، ويطبق ما يقوله تطبيقاً عرفته الدنيا فيما عرفت من سيرته العادلة، وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ صاحب هذه المقولة عن الحرية هو الذي عاقب الحطيئة على إقذاعه في الهجاء وتناوله لأعراض الناس[1]، وهو الذي همَّ بتطبيق حد الخمر على النعمان بن عديّ بن نضلة واليه على مَيْسان بسبب تغنِّيه بالخمر في أبيات له[2]، وهو الذي حاسب خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ حساباً عسيراً حينما منح الشاعر الأشعث بن قيس عشرة آلاف درهم مكافأة على قصيدة وجهها الشاعر إلى خالد[3]، إلى غير ذلك من المواقف التي نقلها التاريخ.

(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١١٠، وانظر الأعلام للزركلي جـ: ٢ ص: ١١٠.
(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٤٠/٤)، ومعجم البلدان لياقوت الحموي مادة ميسان (٧١٤/٤، ٧١٥)، والجليس الصالح الكافي لأبي الفرج الجريري (٣٨٩/١)، عالم الكتب، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية (١١٥/٧) مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٤هـ.

obeikandl.com

فهل معنى هذا أن هنالك تناقضاً بين مقولة عمر عن الحرية وما طبقه في حق بعض الشعراء من العقاب؟! أم أن ذلك دليل واضح على فهم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لمعنى الحرية الصحيح، وهو أنها لا تعني الانفلات من كل قيد، والتخلُّص من كل انضباط، وإنما تعني رسم معالم واضحة للإنسان تتحقق بها حريته المنضبطة الراشدة؟

إن هذا المعنى الأخير هو المعنى الصحيح للحرية التي أشار إليه «سيبنوزا» في مقولته السابقة والتي مثَّل لها بما نقوم به من ضبط لحرية الأطفال حرصاً على مصلحتهم وأن ذلك لا يعني إلغاء حرياتهم.

وهنا نقول: إن حرية الأديب مطلوبة ولابد من رعايتها وحمايتها، ولابد كذلك من ضبطها حتى لا تتحول إلى حرية ضارة مدمِّرة ـ يقول بها الأديب ما شاء متى شاء وكيف شاء.

(جـ) وقفة مع رسالة ابن المعتز:

لقد خصصت كلام ابن المعتز بهذه الوقفة لما فيه من الانفعال ومن البعد عن الموضوعية، ولما فيه من التقوُّل بغير حق، وكأني به قد استسلم لعاطفته بعد أن قرأ رسالة ابن الأنباري التي آخذه فيها على ما جرى في مجلسه من امتداح

لأبي نواس وإشادة بشعره الماجن، فرد على هذه الرسالة برسالته المتحاملة البعيدة عن التوثيق العلمي، والمخالفة للروايات الصحيحة الثابتة فيما أشار إليه.

إن رسالة ابن المعتز تُثير قضيتين:

أولاهما: ادعاؤه أن الناس يتناشدون أشعار امرىء القيس والأعشى والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة وبشار وأبي نواس على تَعهُّرهم، ومهاجاة جرير والفرزدق على قذعهم، على ملأ من الناس وفي حلق المساجد.

ثانيهما: ادعاء ابن المعتز أن النبي عليه الصلاة والسلام لم ينه عن إنشاد شعر عاهر ولا فاجر، ولم ينه عن ذلك السلف الصالح من الخلفاء المهديين بعده.

ونقول ـ وبالله التوفيق ـ:

أما القضية الأولى فهي ذات وجهين، أحدهما يتعلّق بتناشد الناس لأشعار المجون والهجاء على ملأ منهم فهذا ربما كان صحيحاً في فترات معينة، وفي مجالس محدَّدة تجري فيها المنافرات والمناقضات بين الشعراء، وتذكيها بعض الخلافات السياسية والمذهبية، ويزيدها اشتعالاً عناية الرواة بها وحرصهم عليها، على أن هذا الواقع لم يكن مرضياً عند

عامة الناس، ولا عند كل العلماء والرواة والخلفاء، بل إن ما ورد من وصايا ونصائح على ألسنة بعض العلماء والخلفاء ألاَّ يُعلَّم الأبناء إلا الجيد من الشعر والنزيه منه؛ لدليل على أن الأشعار المنحرفة لم تكن تحظى بالقبول والعناية وفق هذه الصورة الفضفاضة التي صوَّرها لنا ابن المعتز في كلامه السابق.

أما الوجه الآخر من هذه القضية فيتعلَّق بتناشد هذه الأشعار المنحرفة في «حلق المساجد»، وهذا ادّعاء من ابن المعتز ينقضه ما رُوي لنا في كتب السيرة والتاريخ، بل وفي كتب تاريخ الأدب، من أخبار عن حلق العلم والذكر في المساجد، وما كانت تحظى به من العناية والرعاية، والتنزُّه عن فاحش القول وبذيئه، ارتفاعاً بمنزلة العلم والعلماء، وتنزيهاً لبيوت الله تعالى عما لا يليق. هذه قاعدة عامة فيما نُقل إلينا عن حلق المساجد، فإن كان قد حدث في بعض الفترات والمواقع ما يُخالف هذه القاعدة فإنما هو من باب الخروج عن الأصل، والشذوذ عن القاعدة، ولا أظن منصفاً يجعل من الشاذ عمدة لإطلاق عبارات عامة تُبنى عليها مواقف، وتُستنتج منها قواعد وأحكام.

obeikandl.com

لقد كان للهو والمجون مجالس خاصة بها يغلب عليها التستُّر وعدم الظهور، يقول د/ عمر فروخ عن أبي نواس: «عاش أبو نواس في البصرة والكوفة عيشة استهتار وفسق ثم لما جاء إلى بغداد أخذ يختلف إلى المجان ويُصاحب المخنثين ويتردَّد على الحانات السرية المنتشرة في ضواحي بغداد كـ «قَطْرَبُّلّ» أو «كلواذي» وهي على مسيرة فرسخين من بغداد... وهنالك في تلك البؤر المهلكة كان يقضي أياماً وأسابيع ـ وربما أشهرًا ـ لا يهتم سوى بشرب الخمر وسماع الألحان والعبث والمجون ونظم الشعر فيما يأتيه»[1].

إذن فقد كان هنالك مجالس خاصة للهو والمجون يجري فيها تناشد أشعار العهر والهجاء المقذع، وكان بعض تلك المجالس بعيداً عن أعين الناس فهي «بُؤَرٌ مهلكة»، وبهذا تظهر المغالطة الكبيرة فيما قاله ابن المعتز ردًا على رسالة ابن الأنباري، ويظهر لنا أثر الانفعال غير المنضبط الذي تناول به ابن المعتز هذه القضية، حتى إن القارئ ليستوحي من كلامه

(١) أبو نواس، شاعر هارون الرشيد ومحمد الأمين، ص ١٧، دار الكتاب العربي، لبنان ١٤٠٨هـ، ونذكر هنا ما ثبت تاريخياً من أن هارون الرشيد قد حبس أبا نواس على أقواله مراراً، فلم يكن يرضى عن كثير مما يقول.

obeikandl.com

أن حياة الناس في العصر العباسي وما قبله إنما هي حياة لهو ومجون، خاصة وأن ابن المعتز استخدم عبارة فيها تعميم خطير «وهل يتناشد الناس»، ونحن نسأل بدورنا أي ناس يا تُرى؟.

يقول د/ عمر فروخ: «ومن الظلم أن نقول مع نفر من مؤرخي الأدب الحديثين[1] إنَّ أبا نواس كان يمثل الحياة في البيئة العباسية، إنه كان يمثل ناحية واحدة من الحياة في بغداد أو غير بغداد كالبصرة والكوفة، تلك الناحية الواحدة كانت ناحية اللهو والتهتك، أما النواحي الأخرى من الورع والتقوى والعلم والصناعة، والقومية والعصبية فقد كانت موجودة وفقدانها في شعر أبي نواس وحده ليس دليلاً على فقدانها جملة»[2].

ونحن لا نشك أن ابن المعتز يعرف هذا تمام المعرفة، ولكنه الانفعال، وعدم الموضوعية، وإلا فإن مثله خليق بألا

(١) يراجع في هذا ما كتبه طه حسين في «حديث الأربعاء»، وما كتبه د/شوقي ضيف في سلسلة عن الأدب العربي، خاصة ما تناول فيه العصر العباسي الأول والثاني فقد وقعا في خطأ التعميم في تصوير الحياة في تلك الفترة.

(٢) أبو نواس، شاعر هارون الرشيد ومحمد الأمين، ص ١٨.

obeikandl.com

يدافع عن أبي نواس، الذي لم يكن خليعاً ماجناً فحسب، ولكنه كان متهاوناً بأمور الدين، مصرحاً بعبارات الكفر أحياناً، فهو «زنديق ولا شك في ذلك، إنه يتساءل عن الغاية من فروض الدين، ويتهكم بالذين يتحوّبون من المعاصي، وليست الزندقة شيئاً سوى ذلك فهو يقول:

حجُّ مثلي زيارة الخمَّار ... واقتنائي العَقار شربُ العُقار

ويقول:

يا من يلوم على صهباء ... صِرْفي الجنان ودعْني أسكنِ النارا

ويقول:

يا أحمد المرتجى في كل نائبةٍ ... قُمْ سيِّدي نعصِ جبار السماواتِ

إن التعريض بأمور الدين، والتهكم في الكلام عليها، والاستخفاف بالنواهي والقوارع، وتأويل كلام الله على الهوى، كل هذه من علامات الزندقة، وكل هذه ظهرت في شعر أبي نواس»[1].

هذا عن القضية الأولى التي أثارتها رسالة ابن المعتز.

أما القضية الثانية: فهي ادعاؤه أن الرسول عليه الصلاة والسلام والسلف الصالح والخلفاء المهديين لم ينهوا عن إنشاد

(١) أبو نواس، شاعر هارون الرشيد ومحمد الأمين، ص ٢٩، ٣٠.

obeikandl.com

شعر عاهر ولا ماجن، وهذا ادعاء باطل، جملةً وتفصيلاً؛ لأنه مخالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة والأخبار الموثقة من نهي صريح واضح عن أشعار المجون والفجور، ومن عقاب عليها إذا بلغت أولياء أمور المسلمين بالسجن والضرب، وبالقتل أحياناً. ونحن لا نطيل في الاستشهاد على هذا الذي نقول، ولكننا سنضرب بعض الأمثلة، وللقارئ أن يعود إلى كتب الحديث والسيرة ليجد فيها بُغيتَه مما ينقض ادّعاء ابن المعتز الذي أعمته العاطفة المنفعلة عن حقائق الأمور.

١ ـ قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «لأنْ يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعرًا»[(١)].

فهذا حديث صحيح، يدل لفظه الذي فهم معناه كبار علماء السلف على ذَمِّ الإكثار من رواية الشعر بصفة عامة إكثاراً يطغى على غيره من قرآن وسنة وعلوم نافعة، وهذا النهي في الحديث عام في الشعر في هذه الحالة فكيف به إذا كان شعرًا ماجناً؟!

يقول القرطبي ـ رحمه الله ـ في كتابه الجامع لأحكام

(١) صحيح مسلم (٢٢٥٧) ترقيم محمود فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتاب العربية، ط١، ١٣٧٤هـ.

obeikandl.com

القرآن: «وهذا الحديث أحسن ما قيل في تأويله أنه الذي قد غلب عليه الشعر وامتلأ صدره منه دون علم سواه، ولا شيء من الذكر، ممن يخوض به في الباطل ويسلك به مسلك لا تُحْمَدُ له»[1].

إن هذا الحديث النبوي، وهذا الفهم له من علماء السلف لدليلٌ قاطع على الخطأ الكبير الذي وقع فيه ابن المعتز في قوله المذكور سابقاً.

٢ ـ نَقل ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب ما يلي: «نهى عمر ـ رضي الله عنه ـ أن ينشد الناس شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركي قريش، وقال: في ذلك شتم الميت والحي، وتجديد الضغائن وقد هدم الله أمر الجاهلية»[2].

٣ ـ نقل ابن سلاَّم الجمحي في طبقاته موقف عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ من ضابئ بن الحارث عندما شكاه بنو جرول ونقلوا إلى عثمان أبياته الفاحشة التي رمى فيها أمهم بالكلب، حيث غضب عثمان ـ رضي الله عنه ـ واستنكر هذا القول البذيء وقال لضابئ: «إني لأراك لو كنت على عهد

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٥١)، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٨٧هـ.
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣٤٥/١)، تحقيق محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر، د . ت.

رسول الله ﷺ لأنزل الله فيك قرآناً، ولو أحد قبلي قطع لسان شاعر في هجاء لقطعتُ لسانك»[1].

فهذه المواقف تؤكد مؤاخذة الرسول ﷺ وأصحابه الشعراء على بذيء قولهم، وفيها وفي غيرها من الأقوال الكثيرة المبثوثة في كتب السيرة نهي صريح عن الفاحش من القول، والمقذع من الشعر، وهذا النهي ينسجم مع رسالة الإسلام الشاملة التي تعالج الأدب كما تعالج غيره من جوانب الحياة الأخرى، فما كان أحرى ابن المعتز بتحري الدقة، والبعد عن التقوُّل والادعاء الذي تعارضه الأدلة الشرعية الصحيحة.

أما ما ورد عن الأصمعي من وصف لشعر حسان بن ثابت بالليونة؛ معلِّلاً لذلك بدخوله الإسلام وأن الشعر نكد يقوى في الشر فإذا أدخلته في باب الخير لان، فقد ناقش عدد من الكتَّاب هذه المقولة الأصمعية، وأوضحوا حقيقة هذه الليونة ومعناها في شعر حسان، فالبرقوقي يطرح لنقض هذه المقولة عدداً من الآراء منها أن حسان قد حُمل عليه شعر كثير لم يقله وللأصمعي قول يؤكد هذا، وإذا كان شعر حسان قد لان بعد دخول الإسلام فالأسباب يذكرها البرقوقي منها: تأثير

(١) طبقات فحول الشعراء (١/١٧٣)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مصر، د. ت.

أسلوب القرآن الكريم، ذلك الأسلوب الناصع السهل الممتنع، ومنها أن حسان شاعر مدني نشأ في المدينة وخالط آل جفنة، فلما جاء الإسلام أسلم وخالطت بشاشة الدين قلبه، فكان لابد أن يلين جانبه فيتجافى عن جفوة الأعراب، ثم يشير إلى أن الأصمعي يسمى هذه الليونة والسلاسة ضعفاً وما هي عند المعدِّلة بالضعف وإنما يروع مثل الأصمعي غرابة الألفاظ وضخامة الأسلوب»[1].

أما د/ ناصر الخنين فقد تناول هذه القضية بتفصيل وإسهاب حيث عرض الأقوال المأثورة عن الأصمعي وغيره في هذا الشأن ثم ناقشها عن طريق السند وصحته تارة، وعن طريق المتن ودلالته تارة أخرى، موضحاً المقصود بكلمة «الخير» عند الأصمعي، وغلَّب أن المقصود بالخير في كلام الأصمعي إنما هو الرثاء معتمداً على تصريح الأصمعي في بعض أقواله، وهي مناقشة علمية وافية يحسن الرجوع إليها في موقعها من كتاب «الالتزام الإسلامي في الشعر»[2].

(١) عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان حسان بن ثابت، ص ٢٨، دار الكتاب العربي، ١٤٠١هـ.

(٢) دار الأصالة، الرياض، ص ٣١٥ وما بعدها، ط ١، ١٤٠٨هـ، وانظر كتاب: حسان بن ثابت للدكتور محمد طاهر درويش ص ٥٠٥ وما بعدها، الناشر دار المعارف بمصر.

[٢]ـ أ) شخصية الأمة في الأدب الإسلامي:

لأمتنا الإسلامية شخصيتها المستقلة التي تتميَّز بسمات واضحة دلَّ عليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهَّرة، ومن أهم تلك السمات الخيرية، فهي خير أمة أخرجت للناس، والوسطية، فهي أمة وسط جعلها الله كذلك؛ لتكون شاهدة على الأمم الأخرى، ولذلك ختم الله سبحانه وتعالى برسولها عليه الصلاة والسلام الرسل عليهم السلام، وختم برسالتها الرسالات السماوية، وجعل معجزتها الكبرى بياناً عربياً يَعجز البشر أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا،

ومنح الله نبيَّ هذه الأمة فصاحةً وبلاغةً أدَّى بها الرسالة وبلَّغ بها الدعوة، ورفع للأمة بها راية البيان العربي المشرق، وهو الذي أوتي جوامع الكلم، التي بهرت عقول أرباب الفصاحة والبيان، فوقفوا أمامها مشدوهين يعجبون لهذه الجداول المتدفقة الصافية من بلاغة محمد عليه الصلاة والسلام، ففصاحة الرسول ﷺ «لم تكن مقصورة على جودة الأسلوب وعمق المعنى، بل جاوزت ذلك إلى الأدباء فلقد كان إلقاؤه الحديث بالغاً درجة الكمال»[(١)].

(١) د/ محمد لطفي الصباغ، التصوير الفني في الحديث النبوي، ص ٢٢، المكتب الإسلامي، ط ١، ١٤٠٣هـ.

obeikandl.com

كان الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي بنى شخصية الأمة المسلمة، بما أنزل الله عليه في كتابه من هدى ويقين، فقد تلقى الوحي من الله تعالى غضاً طرياً، وسار به في الأرض عملاً ودعوة، أنقذ بها البشرية من حمأة الضلال.

لقد كان عليه الصلاة والسلام يتخلَّق بخُلُق القرآن، وكفى به خُلُقاً، يسمو بصاحبه إلى علِّيين، وظلَّ يبني شخصية أمته على هذا الأساس المتين القائم على الإيمان بالله تعالى رباً، وبمحمد عليه الصلاة والسلام نبياً ورسولاً، وبالإسلام ديناً قيماً ملّة إبراهيم حنيفاً، بنى شخصية الأمة بناءً متكاملاً يبدأ من «المضغة التي إذا صلُحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» إلى كل خلية من خلايا هذا الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض، بناءً متكاملاً عقيدة وفكرًا وأدباً، نعم «أدباً»؛ لأن الأدب أسلوب مؤثر، وهو بذلك وسيلة من وسائل بناء شخصية الأمة الإسلامية، وذلك عندما ينبثق من الإسلام الذي تقوم عليه هذه الشخصية، وتستمد منه مقوماتها، لذلك كان الدور المنتظر من الأدب الإسلامي كبيرًا، وكان التفريط في القيام به إضاعةً لجانب مهم من

جوانب شخصية أمتنا، «إن من البيان سحرًا، وإن من الشعر حكماً»[1].

إن الحكمة هي القول الذي يطابق الحق، ويكون صادقاً بحيث ينتفع به الناس، أو أنها المنع؛ بمعنى أن من الشعر كلاماً نافعاً يمنع من السفه[2]، ويُسهم في البناء الحضاري للأمة، ومعنى ذلك أن شخصية الأمة الإسلامية في الأدب الإسلامي تتميز بصورة مشرقة منسجمة مع عقيدتها وفكرها؛ لأنها تقوم على تلك العقيدة وهذا الفكر؛ ولأن الأدب الإسلامي ينبثق منهما، ويستمد إشعاعه من نورهما الساطع، ويكون الأدب إسلامياً حين يستضيء بهذا النور السماوي، ويكون بناءً نافعاً حين يعتمد على القاعدة الإسلامية الصلبة التي تعتمد عليها شخصية الأمة.

إن للأدب الإسلامي رسالته العظيمة في بناء شخصية الأمة وإرشاد أجيالها إلى الطيب من القول، والنزيه من المعاني والأفكار، والمشرق من الصور الفنية، إنه الدواء الذي تُعالج به انحرافات أدباء المجون، والخلاعة والإلحاد.

(١) ابن الأثير الجزري، جامع الأصول (١٦٤/٥)، مكتبة الحلواني، ١٣٨٩هـ.
(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأدب (٥٤٠/١٠)، دار الفكر.

obeikandl.com

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «إن الأدب أو الفن المنبثق من التصوُّر الإسلامي أدب أو فن موجَّه.. يعتمد على الصدق في تصوير أهداف الحياة اللائقة بالعالم من البشر لا بقطيع من الذئاب»[1].

وما أجدر هذا الأدب بتقويم ما أعوجَّ من أساليب كثيرة من أدباء المسلمين في هذا الزمن، وتصحيح ما فسد من الأذواق، وتوجيه ما انحرف من الأفكار، وبناء ما هدم من جوانب شخصية الأمة الإسلامية التي اجتمعت عليها معاول الهدم العقدي والفكري والأدبي «إن الكلمة في الأدب الإسلامي لا تحرق في بخور الفراغ تزجية للوقت أو تسلية، وإنما هي كلمة مسئولة يصدرها الأديب ذَوْبَ نفسه، وانطلاقة روحه، تعبيرًا عن دور الإنسان في الحياة وغاية وجوده، إن الأدب الإسلامي حين يُعلي من شأن الأصالة فلأن الأصالة تعبير عن شخصية الأمة وتطلُّعات وجدانها الحي»[2].

إن علاقة الأدب الإسلامي بشخصية الأمة تبرز لنا في صور كثيرة منها:

(١) في التاريخ فكرة ومنهاج (١٨/١)، دار الشروق، بيروت.
(٢) الإنسان في الأدب الإسلامي، د/ محمد عادل الهاشمي، ص ١٢، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة.

obeikandl.com

١ ـ صورة المنافحة عن هذه الشخصية والدفاع عنها «اهجهم أو هاجهم، وجبريل معك»[(١)]، وقد كان حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ صاحب هذا الدور الجهادي الكبير، لما له من مكانة شعرية يعد بها فحلاً من فحول الشعراء العرب، وهو دور كان وما زال وسيظل يحظى بالتقدير من أبناء الأمة الإسلامية الحريصين على بقاء شخصيتها مستقلةً ثابتة. عن هشام بن عروة عن أبيه قال: ذهبت أسبّ حسان عند عائشة فقالت: «لاتسبّه، فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ»[(٢)]، فها هي أمّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ تستنكر سبّ حسَّان بالرغم من أنه كان ممن خاض في حديث الإفك، وتذكِّر ابن أختها بأن حسان كان ينافح عن رسول الله عليه الصلاة والسلام.

٢ ـ صورة التعبير عن شخصية الأمة الإسلامية تعبيرًا يوضح ما فيها من سمات التميز من إيمان بالله، واستجابة لأوامره وانتهاء عن نواهيه، وجهاد في سبيله، إنه التعبير من الداخل لتصل صورة هذه الشخصية إلى الناس بصفائها ونقائها، «أخبر الهيثم بن أبي سنان أنه سمع أبا هريرة في

(١) (٢) فتح الباري (١٠/٥٤٦).

obeikandl.com

قصصه يذكر النبي ﷺ يقول: إن أخاً لكم لا يقول الرفث ـ يعني عبد الله بن رواحة ـ قال:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

إذن فقد كان عبد الله بن رواحة صاحب هذا الدور، وهو يحظى من رسول الله بالعناية والتأييد.

وليس معنى هذا أن دور الأدب الإسلامي محصور في هاتين الصورتين السابقتين، كلا، فله آفاقه الواسعة وميادينه الرحبة، التي يستطيع من خلالها أن يُسهم في بناء شخصية الأمة والمحافظة عليها، فلو أن شاعرًا إسلامياً لم يكتب قصائد جهادية، ولا قصائد تصوِّر شيئاً من تعاليم الإسلام، وإنما كتب شعرًا وجدانياً تتحقق فيه نزاهة الكلمة المسلمة لفظاً ومعنى، فإنه بذلك يكون قد أسهم في بناء شخصية أمته والحفاظ عليها؛ لأن الدين الإسلامي يفسح المجال أمام عواطف البشر ومشاعرهم، وتجاربهم الخاصة، مادام كل ذلك منضبطاً في إطاره العام بضوابط الإسلام،فإذا تفلَّت الأدب من هذه الضوابط وجد الموقف الرادع الذي لا يسمح له بالاعتداء.

obeikandl.com

وقد روى ابن حجر العسقلاني حديثاً أخرجه البغوي في «معجم الصحابة»، والطبراني في «الأوسط»: عن مالك بن عُمير السلمي أنه شهد مع رسول الله ﷺ الفتح وغيرها، وكان شاعرًا، فقال: يا رسول الله، أفتني في الشعر، فذكر الحديث ـ يعني حديث: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير من أن يمتلىء شعراً» ـ ، وزاد مالك: قلت: يا رسول الله، امسح على رأسي فوضع يده على رأسي فما قلتُ بيت شعر بعد. وزاد البغوي في روايته: فقال له الرسول ﷺ «إن رابك منه شيء فشبِّبْ بامرأتك، وامدح راحلتك»[1].

ففي هذا التوجيه النبوي الكريم لمالك بن عمير دليلٌ على اتساع دائرة الأدب الإسلامي، وأنها ليست محصورةً في أدب الجهاد، أو أدب الوعظ والإرشاد والدعوة، بل هي أعمّ من ذلك وأشمل مادامت بعيدة عن الإخلال بشيء من قيم الإسلام، على أن توجيه الرسول عليه الصلاة والسلام لمالك بن عمير إلى التشبيب بامرأته، ومدح راحلته حينما يغلبه الشعر يوحي بأمور منها:

(١) فتح الباري (٥٤٩/١)، وقد وردت القصة في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر بزيادات أخرى (٣٥١/٣)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

obeikandl.com

١ ـ أن مالكاً قد سأل الرسول ﷺ عن نوع معيَّن من الشعر، ويبدو أنه الشعر الذي يشبِّب فيه الشاعر بالنساء، ويمدح به الناس مدحاً خارجاً عن إطار المباح، ولهذا وجهه الرسول ﷺ إلى تركه وشبهه له أقبح تشبيه تحذيرًا له من التمادي فيه، بل مسح الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ على رأسه ليتوقف عن قول هذا الشعر.

٢ ـ أن الإسلام يُعنى بجوانب النفس البشرية كلها، ولا يغفل عواطفها ولا ينظر إليها نظرةً مثاليةً مخالفةً لطبيعتها البشرية، إنه يراعي هذه العواطف ويوجهها إلى ما هو خير لها في دنياها وآخرتها، يشير إلى ذلك قول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لمالك: «فإن رابك منه شيء فشبب بامرأتك وامدح راحلتك»، وفي هذا توجيه للشاعر إلى ما يبعده عن المحظور الشرعي في شعره فبدلاً من المدح المبالغ فيه، وبدلاً من التشبيب بمحارم الناس يمكن أن يمدح الشاعر راحلته، وأن يشبب بزوجته إذا غلبه الشعر.

٣ ـ أن الأدب داخل في دائرة اهتمام الإسلام لما له من أثر فعّال في مشاعر الناس سلباً وإيجاباً.

وإذا كان الأدب هو «التعبير الفني عن القيم الشعورية» أو

obeikandi.com

«الاختلاج الداخلي الذي ينطق به اللسان» فإن هذا يجعل علاقته بالأمة أقوى؛ لأن التجربة الشعورية الفردية تعكس أثر التجربة الشعورية العامة للجماعة والأمة، ذلك عندما يكون الأديب صادقاً في حبه لأمته وانتمائه إليها، مؤمناً بمبادئها، مستعداً للتضحية بما يملك في سبيلها، وفي قصة «عبد الله ابن رواحة» ـ رضي الله عنه ـ، دليل على ذلك، فهو بمثابة الأنموذج الأمثل لتلك العلاقة الراسخة بين الأديب وأمته، فهو يقدم شعره لأمته مصورًا لمبادئها، ومعبراً عنها وداعياً إليها، وهو مع ذلك يسعى صادقاً للجهاد في سبيل الله مقدماً روحه لله الذي شرع لهذه الأمة مبادئها، فيحفز نفسه على خوض المعركة بعد أن مالت ميلاً خفيفاً إلى التردَّد ويخوض المعركة مرتجزاً بأبياته التي سبقت الإشارة إليها في حديثنا عن التجربة الشعورية في أول هذا البحث، وكأنه يقول لنا بلسان حاله:

ها أنذا أرسم لكم يا أدباء الإسلام طريقاً واضحاً لمعنى إيمان الشاعر بمبادئه وجهاده في سبيل الله بشعره وبنفسه، ها أنذا أرتجز بالشعر وأخوض المعركة، فيطير شعري إليكم بجناحين خافقين من الإيمان والعاطفة الصادقة، وتطير روحي إلى بارئها دفاعاً عن عقيدة الإسلام التي تقوم عليها شخصية الأمة.

obeikandl.com

إنه نموذج إسلامي رائع[1] يوضح لنا عمق العلاقة بين الشاعر الإسلامي وأمته ويبين لنا عظم المسؤولية التي يحملها هذا الشاعر لبناء شخصية أمته المتميزة، في عصر التكالب الأدبي المنحرف الذي يتسلّى بتحطيم القيم وهدم المبادئ، وتشويه الأخلاق.

وهناك نموذج آخر ثبت على طريق الحق، ووجه شعره لنصرة دينه وأمته، إنه الصحابي الجليل كعب بن مالك الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ «أما الأغراض التي غلبت على شعر كعب فهي أغراض يخدم من خلالها الدعوة الإسلامية، فقد يقول الشعر يصف به معركة من المعارك أو غزوة من الغزوات، وهذا الغرض غالب في شعره، فقد سجل المعارك التي خاضها المسلمون تسجيلاً رائداً وما ذلك إلا لأنه شاعر فارس»[2]، لقد كان كعب من الذين تخلَّفوا عن الجهاد في غزوة تبوك، وتاب الله عليهم بعد أيام من العناء الذي وصفه لنا كعب وصفاً رائعاً روته كتب التفسير والسيرة، وقد كان لكعب

(١) د/ وليد قصاب، ديوان عبد الله بن رواحة، دراسة في سيرته وشعره، ص ١٥٣، دار الضياء، الأردن، ١٤٠٨هـ.

(٢) د/ عبد المنعم أحمد يونس، كعب بن مالك الأنصاري حياته وشعره، ص ٦٧، مطبعة الأمانة، مصر، ١٤٠٦هـ.

obeikandl.com

أثناء فترة الابتلاء هذه موقف دلَّ على عمق يقين الشاعر المسلم بربه، وصدق عقيدته، وقوة ثباته، حيث يأتيه وهو في عزلة تامة عن المجتمع المسلم، بعد أن قاطعه المسلمون بأمر من رسول الله ﷺ، يأتيه نبطي من أنباط الشام بكتاب من ملك غسَّان جاء فيه «أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، وأن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك، قال كعب: فقلت حين قرأته وهذا أيضاً من البلاء، قال: فتيممت به التنُّور فسجرته به»[1].

هذا تكون علاقة الشاعر الإسلامي بدينه وأمته علاقة راسخة لا تهزُّها الأحداث، نعم.. إن هذا من البلاء يا كعب،بل من أشد البلاء أن يساومك الكفار على عقيدتك، ولكنك كنت وأنت في محنتك جبلاً شامخاً تتحطم على صخوره معاول المتربصين، هكذا يكون الشاعر الإسلامي الحق.

قضينا من تهامة كل ريب ... وخيبر ثم أجممنا السيوفا

نخيرها ولو نطقت لقالت ... قواطعهن دوساً أوثقيفا

وأنا قد أتيناهم بزحف ... يحيط بسور حصنهم صفوفا

رئيسهم النبي وكان صلبا ... نقيَّ الجيب مصطبراً عَزوفا

(١) تفسير ابن كثير (٣٩٨/٢) دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٨هـ.

obeikandl.com

رشيد الأمر ذو حكم وعلم وحلم لم يكن نزقاً خفيفا

نطيع نبينا ونطيع ربا هو الرحمن كان بنا رؤوفا[1]

إن الأمة الإسلامية اليوم بحاجة إلى مثل هذه النماذج الرائعة لتدافع عن كيانها برشّاش البيان وحسام الأدب، ولتغسل أطراف ثوبها من دنس الأفكار المنحرفة التي يحملها بعض أبنائها من أمثال القائل: «المجتمع العربي هو في أشدِّ الحاجة إلى العقل حتى يخلِّصه من عبودية الوحي ورسالته البالية»[2]، وحتى لا يظن ظانّ أن ساحة الأدب الإسلامي المعاصر خالية من نماذج أدبية مبدعة ثابتة على منهج الحق، أشير إلى بعض الأسماء التي رفعت هذا اللواء عالياً وما تزال ترفعه وتنافح عنه بالكلمة الطيبة الهادفة.

إنها أسماء كثيرة يصعب حصرها هنا، وإنما أذكر منها الشاعر الراحل عمر بهاء الدين الأميري ـ يرحمه الله ـ[3]، والشاعر عدنان النحوي[4]، والشاعر د. محمود مفلح[5]،

(١) كعب بن مالك الأنصاري، حياته وشعره، ص ١٧٧.
(٢) مجلة الناقد، ص ٢١، ع٢، آب ١٩٨٨م.
(٣) من دواوينه: مع الله، ألوان طيف، أمي، أب، أذان القرآن، من وحي فلسطين، نجاوى محمدية.
(٤) من دواوينه: موكب النور، الأرض المباركة.
(٥) من دواوينه:إنها الصحوة، الراية، شموخاً أيتها المآذن.

obeikandl.com

والشاعر يوسف العظم[١]، والشاعر محمد الحسناوي[٢]، والشاعر د. حسن الأمراني[٣]،والشاعر د. زاهر الألمعي[٤]، والشاعر الروائي نجيب الكيلاني[٥]، والشاعر الشاب د. خالد الحليبي[٦]، وغيرهم من الشعراء والأدباء الإسلاميين الذين غرسوا في تربة الأدب الإسلامي روائع إبداعاتهم، وأسهموا بما قدموه في المحافظة على شخصية الأمة الإسلامية القائمة على الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، ولولا خشية الخروج عن موضوع هذا البحث لاستشهدت بنماذج شعرية ونثرية كثيرة تؤكد العلاقة الوثيقة بين الأدب الإسلامي وشخصية الأمة، وإنها لدعوة صادقة إلى كل صاحب موهبة أدبية أن يجعل ركضه الجميل في ساحة الأدب الإسلامي الفسيحة، فإنها تشتاق إلى وقع حوافر خيول الشعر الأصيل والأدب الرفيع، وتتوق إلى صهيل يبعث فيها الأمل ويريحها من

(١) من دواوينه: قناديل في عتمة الضحى، عرائس الضياء.
(٢) من دواوينه: ملحمة النور.
(٣) من دواوينه: الحزن يزهر مرتين، مزامير، وهو رئيس تحرير مجلة المشكاة التي تصدر في المغرب.
(٤) من دواوينه: على درب الجهاد، الألمعيات.
(٥) له أعمال روائية، ومن دواوينه الشعرية: عصر الشهداء.
(٦) له ديوان: قلبي بين يديك.

obeikandi.com

ضجيج آلات هذا العالم المسحور، وأقول ما قال د. عدنان النحوي: «مهما حاولت الأمم أن تبحث عن مصادر القوة، أو أن تَشحذ من أسلحة، أو أن تطوِّر من مدافع، أو تصنع من قنابل، مهما حاولَت هذا أو ذاك فستظل الكلمة أمضى سلاح، وأصدق قوة، ستظل أسرع من نضح النبل»[1].

(ب) وقفة أخيرة:

من تتبع معاني كلمة «أدب» واشتقاقاتها في لغتنا العربية يتضح لنا أنها لم تُطلق جزافاً وإنما أطلقت ومعها ظلالُها التي يلزم أن يكون الأدب بها شريف المعنى، سليم اللفظ، ساميَ الهدف، بديع التصوير، فالأدب ـ في لسان العرب ـ هو «الذي يتأدب به الأديب من الناس، سُمِّي أدباً؛ لأنه يأدَبُ الناسَ إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح»[2]، وأصل معنى كلمة «أدب» الدعاء «أدَبَ أدباً، وأدب إيداباً، عمل مأدُبةً، دعاه إلى مأدبة»[3]، ولم تجر عادة العقلاء من الناس على الدعوة إلى ما لا يحسن من الأمور، بل لا يُدعى دعوةً عامةً أو خاصة إلا إلى محمدة ومعروف وخير.

(١) موكب النور، ص ٨، المكتب الإسلامي ١٤٠٠هـ.
(٢) لسان العرب، لابن منظور (٢٠٦/١) مادة أدب.
(٣) المنجد، ص ٥، مادة أدب.

obeikandl.com

وفي الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ «إنَّ هذا القرآن مأدُبة الله في الأرض فتعلَّموا من مأدُبته»[١]، قال أبو عبيد: «وتأويل الحديث أنه شبَّه القرآن بصنيع صنعه الله للناس لهم فيه خير ومنافع ثم دعاهم إليه»[٢].

وفي كلمة «الأدب» الدلالة على معنى التهذيب، فيُقال: أدَّب الرجل ولده هذَّبه وعلَّمه، والأدب «الظرف وحسن التناول»[٣]، والأدب أدب الدرس والنفس، وهو أمر مختصٌّ بما تدل عليه كلمة أدب في لغتنا من السموّ والرفعة والبعد عن سقيم المعنى، ورديء اللفظ، ولهذا كان علم الأدب هو «العلم الذي يحترز به عن الخلل في كلام العرب لفظاً وكتابة»[٤]، وقد استعمله الزجَّاج في شأن الله تعالى فقال: «وهذا ما أدَّب الله تعالى به نبيَّه ﷺ»[٥].

---

(١) قال ابن كثير بعد أن تحدث في رواة هذا الحديث: «فيحتمل والله أعلم أن يكون وهم في رَفْع هذا الحديث، وإنما هو كلام ابن مسعود، ولكن له شاهد من وجه آخر، والله أعلم»، انظر: تفسير ابن كثير (٥٨٢/٤).

(٢) لسان العرب (٢٠٦/١).

(٣) المرجع السابق.

(٤) المنجد، ص ٥.

(٥) لسان العرب (٢٠٦/١).

obeikandl.com

إن هذه المعاني الشريفة التي تدور عليها كلمة «أدب» تعطينا دلالة واضحة على اختصاصها بصفات لا يُسمَّى الشيء أدباً إلا بها، فالكلام المنحرف معنى، الرديء لفظاً، الساقط فكراً لا يصح أن يُسمَّى أدباً، وإذا كان لأمتنا الإسلامية كيانها المستقلّ وشخصيتها المتميِّزة القائمة على الإيمان بالله، فإنَّ ما يستحق أن يُسمَّى أدباً في مقياس هذه الأمة، إنما هي تلك النماذج الشعرية والنثرية التي (تدعو إلى المحامد، وتنهى عن المقابح)، وتسمو بذوق المتلقي شكلاً ومضموناً.

وأما ما عدا ذلك من النصوص الشعرية أو النثرية فإنه لا يستحق أن يُسمَّى أدباً أصلاً لعدم تحقُّق مدلول كلمة الأدب فيه ـ وفق ما أوضحناه ـ، ولهذا فإني أرى أن ما شاع في أوساط دارسي الأدب ونقاده من مصطلحات «الأدب الهابط» و«الأدب المنحرف» و«أدب السقوط» إنما هو من الأخطاء الشائعة، وهو من الجمع بين الكلمة وضدها، والضدان لا يجتمعان، فلا يُقال «حسن قبيح»؛ لأن الحسن لا يحمل معنى القبح أبداً، وكذلك الأدب لا يجتمع مع الهبوط والانحراف

والسقوط؛ لأنه ضدها دلالةً ومعنى، وبالرغم من أنَّ استخدامنا لهذا الخطأ الشائع أصبح أمرًا معتاداً إلا أنني أرى ضرورة التنبُّه إليه، خاصةً عند نقَّاد الأدب الإسلامي الذي يضطلعون بدور خطير في تصحيح كثير من المفهومات النقدية السائدة.

إن النص الشعري أو النثري الذي يدعو إلى خلق سيئ، أو يستخدم لفظةً نابيةً، أو صورةً فنيَّةً هابطةً، لا يصح أن يُسمَّى نصاً أدبياً في ضوء المعاني التي ذكرناها آنفاً لكلمة «أدب»، وهي معانٍ لا تُستخدم الكلمة في غيرها إلا من باب التجوُّز والخطأ، فكيف إذا كان ذلك النص متضمِّناً لكفر بَواح يُسيء إلى ذات الله عز وجلَّ أو إلى كتبه ورسله؟؟!

وقد رأينا كيف نصَّت معاجم اللغة على أن الأدب إنما سمِّي أدباً لأنَّه «يأدِّبُ الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح» فلا يكون النص أدباً إلا إذا حقَّق هذا المعنى، وفي ضوء هذا الاستخدام اللُّغوي ودلالاته الثابتة في لساننا العربي، يكون «الأدب الإسلامي» بسماته الفكرية والثقافية والفنية، وبمنطلقاته الإيمانية القائمة على الفطرة المستقلّة المتميزة (هو الأدب).

obeikandl.com

فما أحوج الإنسانية إلى هذا الأدب الحقيقي، وما أغناها عن النصوص المنحرفة التي تُسمَّى أدباً، وما هي من التهذيب والأدب في شيء!

وصدق ابن منظور عندما ذكر أن معنى كلمة الأدب عند العرب هو «الذي يتأدَّب به الأديب من الناس، سُمِّي أدباً؛ لأنه يأدِبُ الناسَ إلى المحامد، وينهاهم عن المَقابح».

والحمد لله أولاً وآخراً.

د/ عبد الرحمن بن صالح العشماوي

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كلية اللغة العربية

قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي

الرياض

obeikandl.com